الريحاني : الأديب الفاعل

بقلم رئيف خوري

قبل أدب الريحاني ، قبل أفكاره ، لا بد من وقفة متأملة متعمقة امام شخصيته . واكبر الظن انكم لن تعارضوني في هذا الرأي لانكم ترونه صحيحا فيما يتعلق بالادباء جميعا لا الريحاني وحده . او ليس ان شخصية الاديب تدخل في نسيج ادبه وافكاره ؟

على انني في الحق لم اقصد البتة الى هذا المعنى حين طالبت بان نقف وقفة تأمل وتعمق امام شخصية الريحاني قبل ادبه وافكاره . وانما قصدت الى ان الريحاني هو من الادباء الذين يستمد ادبهم من شخصياتهم وزنا فوق الوزن الذي يكون لذلك الادب نفسه ولتلك الافكار نفسها لو انها انبثقت من ادباء سواهم .

قد تعجبون . ولكن هذه الظاهرة ملحوظة بوضوح في دنيا الادب. فلو ان المرحوم حليم دموس مثلا كان هو القائل :

وما سرني اني اصبت معاشرا بظلم واني في النعيم مخلد

فهل ترى يكون لقوله وزن في نفوسنا كوزنه وابو العلاء هو القائله ؟

لا لعمري !

فالقاعدة : انظر الى ما قيل لا الى من قال ، لا تصمد في الادب . قاعدة تنقضها ظاهرة ملموسة في دنيا الادب والادباء هي اننا كثيرا ما تستولي علينا عظمة شخصية اديب لا يكون ادبها الذي انشأته بحجمها ومداها .

بل اتجاسر فأذهب الى ابعد ، وارجح ان الادب العظيم لا يكون بلا شخصية عظيمة تبدعه ، وان هذا الادب العظيم قلما يعظم الى حجم الشخصية العظيمة التي تبدعه .

واذا رأيتموني استهل الحديث بهذه الخواطر في مجال الكلام على الريحاني فلان الريحاني يفوق في حجم شخصيته ومداها كل اثر كتبه. الابعاد التي كانت تناديه ويستدنيها في بواكير كتبه « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » و « المكاري والكاهن » (كلاهما بالعربية) « وجادة الرؤيا » (بالانكليزية) اعظم بما لا يقاس من هذه الكتب .

وربما خيل لنا ان القضية مجرد قضية تعبير وفن . ذلك بان قدرة الريحاني على التعبير بالعربية والانكليزية ومواهبه الفنية ، نمت نموا عظيما في المدة بين كتاب « المحالفة الثلاثية » و « المكاري والكاهن» و « جادة الرؤيا » ، وبين كتاب خالد (بالانكليزية) و « ملوك العرب » و « قلب لبنان » (بالعربية) . ولكن شخصية الريحاني كانت في المدة نفسها تتفتح وتنمو الى حجم اكبر من كتبه كلها .

ويغلب على يقيني ان هذه الظاهرة خاصية يتصف بها جميع الادباء والمفكرين الذين ما اشتغلوا يوما بمجرد التعبير وانما كان يهزهم ابدا شوق لاعج الى ان يحققوا بالعمل ما يعبرون عنه بالكلمة . ذلك ان في الادباء من اذا عنتهم المشاكل اكتفوا بالتعبير واستراحوا الى انهم قد ادوا الواجب ووفوا بما يسمونه « الرسالة » . هؤلاء يمكن ان يكون لادبهم حجم اكبر من شخصياتهم . وهم على اي حال قلما يعظم ثقلهم في موازين الاعتبارات والمصائر الانسانية .

ولكن ثمة فئة اخرى من الادباء لا يشفيهم الا العمل . فما يكتبون او يخطبون لا يراد به مجرد التعبير الجميل والتفسير والتحليل وانما يراد دستوراً للعمل ، فترى اقوالهم تدوي دوي الافعال . بل تراهم يدأبون في سبيل ان تترجم اقوالهم الى افعال . ترى لهم سيرة نضالية تتناغم وحياتهم الكتابية . ذلك بأن رجال القلم والفكر قد فسروا العالم والقضية هي قضية تغييره .

في عداد هؤلاء يقف امين الريحاني بقامة عملاقة في المواكب اللبنانية والعربية الحديثة . وانجرأ فاقول ان قامته لا تتوارى حتى في المواكب العالمية .

ومرد ذلك الى شخصيته الفذة التي لا بد عند تقييمه من افراد اعتبار خاص لها ، مستقل عن مجرد ادبه وافكاره .

نقرأ الريحاني فلا نملك ان نشعر بأننا امام رجل يحمل الهموم الانسانية بجد وعمق . يحملها على مقياس عالمي ومقياس وطني قومي . وفي سبيل هذه الهموم كبح جماح جناحيه من التدويم في فضاءات الشعراء لتبقى قدماه قريبتين من الارض ، من الواقع الحي . ان فيه شيئا من بطل الاسطورة الاغريقي « انتيه » الذي كان يدرك انه لا يغلب ما دامت قدماه ثابتتين في الارض . من ثم لم يتردد الريحاني في خطبة له اعدها سنة ١٩٠٨ ، (اخر سنة من حكم عبد الحميد) ليلقيها في « حفلة جمعية شمس البر » فمنعتها المراقبة ، ان يقول : « رضيت ان اكون من الطبقة الاولى في الوطنية ولو جعلني ذلك في الطبقة الوسطى من الشعر » .

حمل الريحاني بجد وعمق الهموم الانسانية . ويكفي ان نطالع فصلا كالفصل الذي جعل عنوانه « ربيع اليأس » حتى نحس اي عمق بلغت هذه السمة في شخصيته .

حقا لقد كان الريحاني الذي كره البكاء والبكائين ، وحمل بغضب وسخر على الادب النواح ، حزينا في قدس اقداس ذاته .

ولكن هذا الانسان الحزين ، المثقل بالهموم الانسانية كان متفائلا. وهذا الظلام الذي شهدناه يتكاثف في فقرة بعد فقرة من الفصل الذي كنا فيه لا يلبث ان يشقه وميض نور متألق في الفصل نفسه . فنسمع الريحاني يهتف بنا :

« نفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات يأسهم سمعتها القرون ورددتها الاجيال . رددها في كل جيل افراد من اولئك الذين يعطون حياتهم ليظفروا بها ، وادى ترادهم الى تجديد الصلاح في الناس وزيادة عدد من يقولون : « لا » ، ومن هم في قلوبهم واعمالهم مؤمنون ايمانا صادقا . لذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تتسع وتزداد اخضرارا كل مئة من السنين » .

انه التفاؤل ! وهو الخاصية الثانية في شخصية الريحاني واحدى الدعامات المتينة المقومة لعظمته . في كل ما عزف الريحاني لم تخرس نغمة التفاؤل ولا انطفأ شعاع الخلاص ، حتى في احلك الساعات . ها هو يطوف بالخيال مدينة بيروت ابان الحرب الكونية الاولى ، الحرب التي كشر فيها الجوع عن انيابه وسلط الاستبداد سياطه ونصب الارهاب مشانقه . فلنسمعه يصور النكبة السوداء :

« وصلت الى ساحة الاتحاد فوجدتها خالية مظلمة . تعثرت هناك بكلب فتحرك قليلا ولم ينبح . الجوع والرعب يعقدان حتى ألسنة الكلاب . وما كدت اصل الى وسط الساحة حتى رأيتني امام مشنقة تدلت منها جثة في قميص بيضاء فتراجعت مذعورا ، فاذا انا بين عدد من المشانق ، بل بين اصحابي واخواني شهداء الحق والوطن والحرية وقد استحال ظلام الليل نورا على وجوههم . عرفت معنى سكوت الناس

في البلد . هو ذا مصدر الرعب السائد في قلوبهم ... اي اخواني ! كنت في المدينة نهارا ابحث عنكم ، فها قد جمعني بكم الليل ، جمعتني بكم نجوم السماء . ولكن النور الذي ينير وجوهكم حير فؤادي . فتلفت استطلع مقامه فاذا في وسط المشانق صليب كبير يعلوها كلها ، وعند الصليب امرأة في ثوب الحداد جاثية ترفع الى المصلوب يديها . امي ، ام امتي خالدة لا تموت . لا تموت وفي قلبها ذرة من الرجاء . لا تموت وان امست ارضها غابا من المشانق . لا تموت وفيها من ابنائها من يمونون شهداء الحق والوطن والحرية !

أرأيتم كيف يأبى الريحاني الا ان يعزف نغمة التفاؤل والثقة بالحياة حتى في ظلال المشانق :

« ان آلهة الشعر لا تعلم اليأس وربة النبوغ لا تعرف القنوط » .

وللريحاني فصل تلاه سنة ١٩٣٢ في مدينة القدس سماه « حبل التفاؤل » واستهله بقوله : « اني من المتفائلين خيرا بالكون » . اوصي بقراءة هذا الفصل في اناة وتدقيق لان الريحاني لا يقف فيه عند حد التحمس الوجداني بل يتتبع خطوات تقدمية واسعة خطاها المجتمع الانساني نحو الافضل . (تجدون الفصل في الجزء الثاني من الريحانيات ، نشر دار الريحاني ، سنة ١٩٥٦) .

ذلك التفاؤل العميق في الريحاني نحلى في خاصية اخرى من خصائص شخصيته ، اعني نفرته من الادب الباكي . الادب البومي . الادب النعاق . الادب النقاق . وتشيع اصداء نفرته من هذا الادب السوداوي ، في كل ، ما كتب .

ففي كتاب « خالد » الذي نشره سنة ١٩١١ بالانكليزية يروي قصيدة شجية لخالد (وخالد اسم آخر للريحاني نفسه) يذكر فيها كيف حلم وهو في نيويورك بانه « عاد صبيا سائق حمار على طرق بعلبك المجلوة بالشمس » . وكيف نام في حضن الطبيعة البهية والازهار الشذية ، في وطنه ، فاقبل عليه عفريت حمله على عنقه الى ساحة في نيويورك « وكم فمه بيده واخرسه عن الصياح ، فسرحت الدموع على خديه وطرح نفسه على مقعد من خشب يبكي » . ثم يقول الريحاني في التعليق على هذا الشعر :

« أظلال من ويتمن . ولكن ويتمن ، يا حمار ، لا يبكي ولا ينوح » .

وجملته على الادب النواح تبلغ ذروتها في سفره : «أنتم الشعراء». على انني سأكتفي في هذا الصدد بان اتلو عليكم سطورا من رسالة للريحاني لم تنشر من قبل حتى في مجموعة رسائله التي جمعها شقيقه البرت ونشرتها دار الريحاني .

انها رسالة وجهها الامين في ٢٧ حزيران سنة ١٩٢٤ الى الاديب الاستاذ خليل هنداوي وقد كشف لنا عنها في اسبوع المهرجانات .

قال الريحاني : « الشباب ايها العزيز ربيع تستغرب فيه الكآبة . اقطف الوردة اليوم باسما واذا ادميت يدك فلا تصح ولا تئن . كن شجاعا ولا تلفت نظر الناس من الوردة اليك ... كن بعيدا عن التأفف والكآبة والانين . ان في آدابنا الحالية من الدموع بحرا يخشى علينا فيه من الغرق والهلاك » .

كن شجاعا . وهذا ينقلنا الى سمة اخرى رائعة من اخص السمات في شخصية امين الريحاني ، اعني الشجاعة ومع الشجاعة الصراحة . الشجاعة والصراحة في الجهر بما يؤمن انه الواجب والحق . الشجاعة والصراحة في وجه التقاليد الشادة الى وراء . في وجه الحكام المتفطرسين . في وجه الجمهور المتحجر . في وجه التزييف والعقائد التي يقتنع بانها خاطئة حتى ولو احيطت بهالة من التقديس . ولسنا نسرف اذا قلنا انه بنفسه مدرسة في الشجاعة والصراحة الفكرية .

واحد سلاحيه في هذه الشجاعة والصراحة الغضب والسخر . فهذا الانسان الذي نراه احيانا يرق حتى يذوب امام زهرة رآها نابتة في وادي الفريكة من شقصخر ، كان يتفجر احيانا بغضب ولا غضب البراكين ، ويسخر بحد قاطع ولا حد السكين .

فاذا اردنا انموذجا من غضبه فما علينا الا ان نقرأ احدى الفقرات من خطبته الشهورة « بين عهدين » وهي التي القاها سنة ١٩٢٣ في جمعية التضامن الادبي في بيروت فصدر على اثرها حكم المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مرتيل بنفيه من البلاد .

فمما جاء فيها :

« من عهد عبد الحميد الى عهد الانتداب . من عبودية خلقية روحية الى عبودية اقتصادية مادية . من عبودية تحسن السكوت الى عبودية لا تحسن غير الكلام . من عبودية اشغالها ماشية الى عبودية تئن من العسر والضيق . من عبودية بطنها ملآن الى عبودية تهددها المجاعة . من عبودية تصلي وتشكو الى الله امرها الى عبودية تتفلسف وتكذب على نفسها وعلى الله . من عبودية بريئة متواضعة الى عبودية بذيئة مكابرة».

او ما علينا الا ان نقرأ أسطرا من قصيدته « نيويورك » ترن فيها نبرة موبخة من نبرات النبيين :

« عرشك جبال الثروة وحوله وحوشها ، ويل لابنائك وعشاقك ! احشاؤك من الحديد وفيها عقمه ، صدرك من الخشب وفيه سوسه ، فمك من النحاس وعليه صداه ، جبينك من الرخام وفي جماله جموده . ويل لابنائك وعشاقك ! أبنت الثروة والاحتكار ، في مخازنك خيرات الارض . وفي خزائنك الاموال والعلى ، وفي قصورك عجائب الحضارة ، وفي جاداتك بهاؤها وضجيجها ، وهولها وعجيجها . وفي اكواخك الظلمة والفقر والجوع والانين . ويل لابنائك وعشاقك ! »

او ما علينا الا ان نطالع في كتاب « ملوك العرب » فصله الذي كتبه حين فوجيء بوجود تجارة بالرقيق في الجزيرة العربية ، قال :

« كنت أظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعا في هذا الزمان فخاب في البلاد العربية ظني » .

وبعد ان يلسع الانكليز والحكومة الافرنسية في جيبوتي وسلطان تاجورا في الحبشة وحكومة الملك حسين ، يهتف :

« هل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة : انه لمن العار ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال وتدعوا البر والاحسان وتفاخروا بالعلم وحب الانسان ثم ، لطمع بالخدمة مجانا او لغرض في النفس ، تستعبدون في هذا الزمان من هو مثلكم من طينة واحدة .. ان من يستعبد الانسان لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه . وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها لاذل في عين الله ممن لا يعرفون الله واحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ويأكلون لحم الانسان » .

وعلى هذا النحو يمضي البركان الغاضب في تفجره ونفث حممه.

واذا اردنا انموذجا من سخره فلنقف لحظة لنقرأ فقرته المشهورة التي يصور بها مناقب البغلة وقد عزم ان يزور الارز على ظهرها (والفقرة في كتابه قلب لبنان) .

« البغلة تمتاز عن البغل بحسن صلاتها البشرية وبما اورثتها تلك الصلات من الصفات الطيبة . كيف لا وما عرفت من بني آدم غير اصحاب الفضيلة واهل البر والنهى فتشرفت باسمائهم واشتهرت بسجاياهم العقلية والروحية فقال الناس بغلة القاضي ، ما شاء الله . وبغلة الرئيس ، سبحان الله . وبغلة المطران وبغلة الشريف ، تبارك اسم الله . وهناك من البغلات التاريخية بغلة ابن خلدون التي احبها تيمورلنك قبل ان يراها .. والاذن تعشق قبل العين احيانا حتى في المحاسن الحيوانية . فاهداها له المؤرخ المشهور يوم رافق الوفد الدمشقي اليه لمفاوضته في الصلح » .

ومن نماذج سخره ايضا قوله في كتابه خالد بلسان خالد نفسه حين هبط المدينة يريد الابحار الى الولايات المتحدة الاميركية فعوقه الموظفون العثمانيون . قال : رأيت الموظفين العثمانيين يتقنون قراءة الليرة العثمانية الذهب جزءا من قراءة جوازات السفر .

ومن نماذج سخره في كتابه خالد ايضا وهو يعرض لذكر التراخوما : ان المصاب بهذا الداء يمكن بعناية الاطباء عشرة ايام ان تسوء حالته جدا.

ومعلوم ان للسخر الوانا وله دوافع متنوعة . فالمهم ان نوقن ان

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

الريحاني : الاديب الفاعل

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

سخر الريحاني ينبع من محبته لقومه والانسانية . تحدث في خطبة القاها سنة ١٩٢٢ في الكويت عن ابهج شيء سره في رحلته العربية فقال : انه كرم الاخلاق . ثم تحدث عن اسوأ شيء غمه فقال : انه فقد المدارس الحديثة . فلا في عسير ولا في اليمن ولا في حضرموت ولا في نجد مدرسة واحدة سوى تلك التي في المساجد لتحفيظ القرآن الكريم تحفيظا آليا على الاغلب . ثم ذكر انه ركب في موكب ختمة بعض الصبية (المراد ختمة القرآن) وانه سمع قائلا يقول له : هؤلاء الصبية نالوا العلم كل العلم ، وانهم لفي سبيل الله مجاهدون ان شاء الله . فغلبت الريحاني نزعته الساخرة النابعة من محبته لقومه وللانسانية فلم يملك ان هتف : عسى الله ان لا يشاء مثل هذه القناعة في العلم ومثل هذا الجهاد في سبيله ! ولا اشك ان كلمة الريحاني ، الساخرة هذه قد كان لها اثر في التوجيه شطر التجديد في دراسة القرآن العظيم وشطر العلم الحديث في تلك الاقطار العربية التي قضت عليها الظروف زمنا بالتخلف والانغلاق .

سخر الريحاني بعيد عن ان يكون وليد ضغينة او حقد . وهذا ينقلنا الى خاصية اخرى في شخصية الرجل وهي صفاء النفس واجتهاده الدائم في ان تظل نفسه وينابيعها صافية . فلنسمعه يفتح لنا قلبه ودخيلة نفسه :

« ليس في اعماق نفسي رواسب من الحوامض المعنوية . فالمهم في الحياة باجمعها ان لا ينضب ولا يتعكر الينبوع الداخلي ، مصدر المواهب العقلية والروحية كلها . فاذا دام هذا الينبوع جاريا فائضا صافيا ، فان فيه من الخير والنعمة ما لا يقاس بمقاييس الاغنياء والاقوياء والرؤساء » .

وفي سبيل ان يستبقي هذا الصفاء النفسي كان الريحاني يروض نفسه على كثير من اخلاق الصادقين من الصوفيين . فلنسمعه يقول : « اود ان اعيش دون ان ابغض احدا ، واحب دون ان اغار من احد ، وارتفع دون ان ارفع على احد ، واتقدم دون ان أدوس من هم دوني او احسد من هم فوقي » .

كان هذا الطموح ، اللجوج في طموحه الى الخير لقومه والانسانية زاهدا في المغنم الشخصي . وكان هذا الوتر النفس الرامي عن قوسه بارشق السهام وامضاها في صدر الظالمين والمدجلين والخانعين والجامدين يجتهد ان لا يكون توتره قلقا ضائعا ، مائعا ، بل قلقا هادفا مركزا يستند الى سلامة واطمئنان عميقين في باطن النفس .

يقول الريحاني :

« احس ان شخصيتي مقر السلامة والاطمئنان ولا يضيرها ما حرمت من صحة البدن والنعيم القائم على رمال الجمال المادي والابهة المشيدة على قصبات المال والسيادة . واذا كنت قد قصرت او تهاونت في التمتع بطيبات الارض وبملذات الدنيا من مال وسلطان وبنين ، فاني في ذلة مخير لا مسير ، راض بما كان ، مطمئن الى ما سيكون . فلا حاجة الى ان افكر في غيري : صاحب ثروة طائلة او شهرة واسعة او سيادة عريضة انمنى ان تكون لي او اكون لها وبالتالي عبدها » .

ولكن من اين يأتيه هذا الرضى وذلك الشعور بان شخصيته تقر السلامة والاطمئنان ؟

من كونه نذر نفسه لقضية عظيمة !

أفكان اذا ، ملتزما ؟

لا ونعم !

لم يكن ملتزما بالمعنى الذي نكتسبه هذه الكلمة حين تدخل معاجم الحزبيين . فهو كما كتب في سنة ١٩١٣ ، في خطبته « روح الثورة » يرى « ان الادباء الحقيقيين لا ينتمون الا الى حزب واحد هو حزب الحق والحرية والجمال » . ثم هو « لا يحسن الوقوف والجلوس في الصفوف المنظمة » كما عاد فكتب سنة ١٩٢٢ في مقالته « تكلموا بالعربي » .

ولكنه بمعنى اخر ملتزم . يشهد بذلك ادبه الذي يحفل بالمواقف الجريئة في سبيل قيم وافكار اقتنع بها . غير ان التزامه يتصف بثلاث صفات : الاولى انه فعل عن ارادة حرة واختيار ومحبة لما يلتزم . والثانية انه فعل عن معرفة . والثالثة انه فعل مستقل .

في كتاب خالد نقرأ هذا الكلام على الطاعة (ولست ادري لم اقرن دائما بين الالتزام والطاعة) قال :

« الطاعة كالايمان عطية الهية . ولكنها لا تكون كذلك الا حين تفيض من القلب . انها مقدسة بشرط واحد ان توحيها المحبة ويمليها الاخلاص. فاذا كنت لا تستطيع ان تحترم ما تتبع فاني اقول لك احجب طاعتك . واذا كنت تؤثر ان تبيع هويتك او ذاتك بقطعة نقود مزيفة من العقائدية فالحق حقك . ولكن لا تلق اللوم على الله او القدر او المجتمع اذا رأيت نفسك بعد هذه الفعلة اخا للثور ! »

التزام الريحاني ارادة حرة واختيار ومحبة واحترام لما يلتزم . هذا اولا . اما انه التزام عن معرفة فتشهد به تلك الثقافة الغنية التي تطالعنا في آثاره والتي عانى الريحاني في سبيل امتلاكها غوصا جاهدا في التراثات الشرقية والغربية ... تمكن ان يصبح كاتبا مبدعا بلغتين. وجلس الى العشرات من كبار سدنة العقل والفكر في الشرق والغرب ، علي بن ابي طالب ، ابي العلاء المعري (ترجم الى الانكليزية مختارات من شعره سماها رباعيات ابي العلاء) والغزالي وابن رشد وابن عربي وابن خلدون والشميل وفولتير وكارليل وداروين وروسو وجفرسون وتورو وجون ستيوارت بل وتولستوي ووالت ويتمن . (يصعب عرض الموكب

كيف نكافح الصهيونية

***

بعد مرور ١٥ عاما على نكبة فلسطين ، اجتمعت نخبة من المفكرين اللبنانيين ، في مقدمتهم الاستاذ شارل حلو ، رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي ، وانشأت « مؤسسة الدراسات الفلسطينية » للبحث العلمي في مختلف نواحي حياة الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية ، تنويرا للرأي العام العربي والعالمي بالحقائق القائمة على العلم ، والمنطق ، والدرس الموضوعي.

ولا مشاحة ان الاستاذ عبد اللطيف شرارة قد ساهم مساهمة كبيرة في هذا المجال بكتابه الاخير : « الصهيونية جريمة العصر الكبرى » ، اذ درس ، بما عهد فيه من الدقة ، طبيعة الجماعات الصهيونية ، وتحجرها العنصري ، وعرقيتها المزمنة ، وتعصبها العريق في القدم ، واساليبها في تضليل الشعوب ، وتفلسفها المخرب ، ومساندتها للاستعمار ، وتشويهها لمنطق العدالة والاصلاح وبراعتها في التخطيط العدواني. فاطلب هذا الكتاب من « دار المكشوف » بيروت ، ص.ب. : ٥٨١ ، تلفون : ٢٢٤٧٧٠ .

كله) . ولم تكن ثقافته كتبية فقط . كان أبدا يستطلع الحياة . ورحلته الى البلاد العربية هل كانت غير استطلاع للحياة ؟

وفي ذلك كله كان مفتشا عن الحقيقة . فأتى التزامه فعل معرفة. ولكنه ايضا فعل مستقل لان الريحاني لم يسر وراء احد مـن المفكرين سير التابع في كل شيء ولا صور امرا بصورة نسخها نسخا عن غيره .

فلنسمعه يقول في كتاب خالد : « جميعنا بمعنى مـن المعانـي سائحون . وهذا العالم اقدم الاثـار ... ويرهقنا ويبتلينا المرشدون والتراجمة من كل رتبة وظـل . مرشدون اجتماعيون وسياسيون . تراجمة اخلاقيون ودينيون . تولوستوي هنا ، وابسن هناك ، وسبنسر فوق ، ونيتشي تحت . ثم تترك في تشوش دائم وقنوط . اين تمضي ؟ من تتبع ؟ ام انك تتخلف ريثما ترى عمل الخلاص قد تم .

« ذلك بان المجتمع يجب ان يخلص . والمخلصون كثـر ... أي موكب لدينا من اسياد وفرسان ، وأي نوع ! اتمام عمل الخلاص ممكـن وفي سرعة . ما علينا الا ان نختار . فاغنـر يستطيع تحقيق الخلاص بالموسيقى . باكونين بالديناميت . كـارل ماركس بشاخص المهندس والمساح . هيكل Haeckel بابرة من منطق المادة الحيوية الاولى . (الحبر) بنتفة من الملح والزيت المقدس . وملوك التعليب فـي اميركا بلحم الخنزير والعجول . فماذا الذي تريد ؟.. »

وبعد هذه الومضات من السخر يقول بنبرة جد ويقين : « خـذ عكازك . سر رويدا على هينتك . تريث حيث يدعوك قلبك الى التريث . لا حاجة الى استعجال ، يا اخي ، وسواء اكانت جهنم تنتظرنا هنـاك او الجنة . تعال . ان لم يكن لديك عكاز فلدي اثنان . وما فـي رقعتي اشاطرك اياه . ولكن ادر ظهرك الى المرشدين .. اقول لك سيأتي الوقت الذي يصبح فيه كل انسان مرشد نفسه وترجمانها . سيأتـي الوقت الذي لا تكون فيه حاجة الى كتابة الكتب للاخرين ، او الى سن الشرائع للاخرين ، او صنع الديانات للاخرين . سيأتي الوقت الذي يكتب فيه كل واحد كتابه الخاص في حياة الحيوانات . فيكون ذلك الكتاب قانونه وعقيدته . يكون ذلك الكتاب ـ الحياة ـ هو القصر وهو المعبد لروحه في جميع العوالم » .

دعوة الى الاستقلال ورفض التبعية في الفكرة بالغة المدى .

هذه هي حدود التزام الريحاني وان كان ملتزما .

ولكن هذا الاديب صاحب المواقف الشديدة ، الجريئة ، كان رحب التسامح ايضا .

وقد يبدو في ذلك تناقض ، ولكن لا !

ان اصحاب المواقف الشديدة الجريئة ، التي اختاروها عن ارادة ومحبة ومعرفة واستقلال هم في العادة اعمق المتسامحين دون ان يعني تسامحهم تمييعا او تميعا ، ودون ان يعني تمسكهم بمواقفهم تعصبا .

كان امين الريحاني ـ وتلك سمة مـن ابرز سمات شخصيته ـ يجتهد في ان يتبين وجها للحق في ما يقوله غيره من خصومه . كـان لا يخشى فتح حوار بينه وبين مخالفيه في الرأي . بل كان يسعى ابدا الى فتح ذلك الحوار في كل مجال ، حتـى المجال الخطـر الخطير : السياسة ، والمجال الاخر الاشد خطرا وخطورة : الدين !

ومن ثم رأيناه في السياسة على وضوح الكثير من مواقفه ونزعاته فيها يصرح بانه لا يحسن الوقوف والجلوس في الصفوف المنظمة » .

لماذا ؟ ليبقى قادرا على فتح الحوار . وفي الدين ايضا ابـى ان يتمذهب تمذهبا ضيقا . لعلمه ان ذلك يسد عليه مـا يريده ان يبقى مفتوحا : الحوار . فاحب المسيحية والاسلام ولم يكره الديانة اليهودية وان كره الصهيونية ونفر من اخلاق اكتسبها اليهود . ولم تنغلق دائرة آفاقه الدينية عن بوذا وكنفوشيوس وزرادشت . وعبثا حمل المتعصبون بعنف وقحة احيانا ـ على هذا التسامح الكبير . فما زحزحوه عـن موقفه قيد شعرة . ولا ضاقت دائرة تسامحه بتحملهم . فلنسمعه يقول: « اذا نبذني المسيحيون والمسلمون ، فهنـاك رب الامتين ، رب العالمين ، لا ينبذ احدا ! »

لقد كان الريحاني مؤمنا بالله ، مؤمنا على طريقته . وفي رأيي ان خير ما يلخص ديانته هو هذا المقطع من قصيدته « معبدي في الوادي » :

في ظل القويسة والغار
وبين الزعتر والوزال والخنشار
بالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء ،
وفوق النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب ،
ابني لك ايتها النفس هيكلا من الايمان
اقيم فيه تمثالا للوداد والاخاء
وادعو اليه كل بشر تحت السماء ! »

وهذا يبلغ بنا الى سمة اخرى في شخصية هذا الاديب المفكـر الاصيل اعني حبه العميق للطبيعة وحرصه على انماء الصلة الحيـة الحميمة بينه وبينها وسواء اكانت هذه الطبيعة واديا رائعا في لبنـان كوادي الفريكة او صحراء مهيبة كالنفود العربية .

وبعد ، انراني يحق لي ان اطمئن الى انني قد استوفيت الخصائص التي تفاعلت بعمق وقوة واستمرار لتؤلف تلك الظاهرة الفذة : شخصية امين الريحاني ، شخصية الاديب الاصيل حقا ، الذي يكاد يتحتم فيه ان تأتي شخصيته بحجمها ومداها اعظم من ادبه على غنى ادبه وجماله . نعم ، شخصية الاديب الاصيل حقا ، الذي عاش وبقي تراثه بعد غيابه شاهدا على هذا الائتلاف الجديد Synthése الذي بدا منذ اواخر القرن التاسع عشر واجبا ملحا في حياة الشعوب العربية ، والـذي زادته الايام ونزيده شدة والحاحا .

ان امين الريحاني هو فعل الحقيقة الخالدة : ان البلاد العربيـة يشدها من الروابط ما لا انفصام له . وان العصر لا يحتمل مجرد اجترار وتكرير لما كان في التاريخ ، بل لا بد من محتوى جديد يبحث عنه امين الريحاني واعطانا منه الكثير .

واننا لنفتش الان حولنا بكل ما تشمله كلمة « حولنا » من آفـاق ، فنرى مكان مثل هذه الشخصية اللبنانية العربية الانسانية شاغـرا موحشا في دنيا الادب . فنحس بالفراغ لان امين الريحاني ليس مجرد حاجة يستدعيها ترف العقل ، بل هو حاجة حياتية لنـا بما كان يحمل من سمات الاديب الرسولي ، وبما كان يملك من صوت بعيد الاداء مثير للفعل الفكري في المصائر القومية والانسانية الكبيرة .

نعم ، مثير للفعل الفكري حتى ولو اتفق لك ان تخالفه .

على أنك ولو خالفته فلن تسمع منه الا تلك الكلمة الحلوة التـي كان لا يتعب من ترديدها : يا رجل ، أنت اخي !

رئيف خوري

صدر حديثا :

« چومبي »

قصة طويلة بقلم

أديب نحوي

الثمن ١٢٥ ق. ل. منشورات دار الاداب